تجليات الرمز في الشعر العربي
بين غموض مدلوله وآليات تأويله

أ. فتيحة بلحاجي
باحثة في الدراسات العليا
جامعة تلمسان

إن قضية الرمز في العمل الأدبي تعد من القضايا الأدبية الساخنة التي تثير الجدل دائما لأن الرمز يعتبر من التقنيات التي يكثر استخدامها في الشعر العربي فهو محاولة لخلق حالة شعرية تتميز بقدرة على توليد طاقة إيحائية ودلالية وتعبيرية جديدة تقترب من فهم علاقة الإنسان بتاريخ ذاته وواقعه ووجوده.فإذا كانت اللغة الشعرية هي لغة المجاز فإنها أيضا لغة الرمز ذلك لأن مساحة الرمز في الشعر واسعة وآفاقه رحبة وطاقته الإيحائية كثيفة ولأن الرمز هو الوسيلة التي يعتمدها الشاعر للإيحاء بدل المباشرة والوضوح والتصريح فإنه ينقل القارئ من المستوى المباشر للقصيدة إلى المعاني والدلالات التي تكمن وراء الكلمات كما يقوم باستكمال ما تعجز الكلمات عن تبيانه لأنه أحسن طريقة ممكنة للتعبير عن شيء لا يوجد له معادل فكري أو لفظي آخر.والرمز كأداة جمالية وتقنية فنية لا يقحمه الشاعر مباشرة في القصيدة بشكل اعتباطي وعشوائي بل يدمجه بطريقة مدروسة ومتقنة كما أنه يأتي من اللاوعي ويفرض نفسه على الشاعر.وعليه فإن الرمز هو حامل انفعال لا حامل مقولة. لكن كيف تؤول صناعة الرمز في إطار المنظومة الشعرية التي تستند إلى خلفية فنية وجمالية وفكرية محكمة نظمت وفق منطق المخيلة.وهل الغموض في الرمز يحقق الإدهاش ويخلق تلك اللمسة الجمالية بين النص الشعري والمتلقي وإلى أي مدى يمكن أن تنسجم العلاقة بين غموض الرمز والقراءات الحقيقية لتأويله.

مفهوم الرمز في التراث العربي:

تعددت تعريفات الرمز واختلفت حسب الباحثين وإن كانت تدور وتحوم حول فلك واحد فهناك من يرى أن الرمز "عبارة عن إشارة حسية مجازية لشيء لا يقع تحت الحواس..." وهناك من يرى أنه "ما يتيح لنا أن نتأمل شيئا آخر وراء النص فهو قبل كل شيء معنى خفي وإيحاء." إن تحديد مفهوم الرمز في وسط الركام النقدي الهائل شيء يعجز عنه نطاق هذا البحث وقد

أغنت دراسات كثيرة عن تفصيل ذلك"1" لكن سنحاول الإلمام بمفهومه قدر الإمكان من خلال هذا المنطلق الجمالي الذي نحن بصدد الحديث عنه.

لقد أطلق النقاد العرب القدامى الرمز على الإشارة التي عرفها ابن رشيق القيرواني كما يلي "لمحة دالة واختصار وتلويح يعرف مجملا ومعناه بعيد من ظاهر لفظه"."2" ومما يدل على ذلك قول الشاعر التالي"

أشارت بطرف العين خيفة أهلها إشارة محزون ولم تتكلم

فأيقنت أن الطرف قد قال مرحبا وأهلا وسهلا للحبيب المتيم"3".

فالإشارة – وفق هذين البيتين – موافقة للرمز في معناه ومن ثمة نلمس أن الذي يقوم بالدور الفعال في الدلالة الرمزية إنما هو المدلول الكامن وراء هذه الظواهر وفي هذا السياق نجد سوسير يصفه بما يلي: " ما يتميز به الرمز هو أنه ليس دائما كامل الاعتباطية، إنه ليس فارغا، إن هناك بقايا الرابطة الطبيعية من الدال والمدلول. إن الميزان كرمز للعدالة لا يمكن تعويضه بأي شيء كالدبابة مثلا..."."4" ويقول أيضا: "إن الكلمات إنما هي مجرد علامات أو إشارات للأشياء ويعني بهذه العلامات الكل المزدوج الذي يفيد الدال والمدلول معا وذلك لأن العلاقة بين العلامة ومعناها اعتباطية، أما الرمز فيفترض علاقة طبيعية بسببه بين الدال والمدلول كأن نقول إن الماء رمز الصفاء فبينما ينطبق الدال والمدلول تماما في حالة العلاقة اللغوية فإنما الأمر يختلف عن ذلك الرمز الذي يرتبط ارتباطا قويا في تكوينه بما يطلق عليه السيميولوجية أو علم العلامات "."5". أما تشارلز تشادويك فيعرف الرمز كما يلي " الطريقة الوحيدة للتعبير عن العاطفة في شكل فني هي إيجاد معادل موضوعي – أي مجموعة من الأشياء أو المواقف أو سلسلة من الأحداث تكون في النهاية هي التركيبة المعادلة لهذه العاطفة أو هي تركيبة هذه العاطفة على وجه الخصوص..."6". فمن خلال هذه النظرية نستنتج أن الرمز ليس مجرد استبدال شيء بشيء آخر إنما هو عملية استخدام صور محددة للتعبير عن أفكار مجردة من العواطف. كما أنه يركز على المهمة التي يقوم بها الرمز في الربط بين الواقع المادي والمعنى المجرد على اعتبار أن الرمز هو "المقارنة بين المجرد والمحسوس، حيث إن أحد طرفي المقارنة يشار إليه دون أن يذكر"."7".

أما عز الدين إسماعيل فيرى أنه لا فرق بين كلمة وأخرى في هذا المجال لأن كل مفردات اللغة لها أن تستخدم في الشعر" استخداما رمزيا ولا تكون هناك كلمة هي الأصلح من غيرها لكي تكون رمزا إذ المعول في ذلك على استكشاف الشاعر للعلاقات الحسية التي تربط

الشيء بغيره من الأشياء "."8" وعليه فإن لغة الرمز موقوفة في روعتها على مقدرتها على تمثيل الأشياء وتصويرها تصويرا خياليا عن طريق التمازج بين التجربة الداخلية والتجارب الخارجية للإنسان عامة. والقصيدة الرمزية توحي بعوالم خيالية تتألف من عناصر مستخلصة من تجربتنا للعالم الحقيقي. لكن لا بد من الغموض في التجربة الرمزية واستكناه جوهر اللغة الكامنة في العلاقات بين الصور التي تتوحد فيها مختلف الأحاسيس المنغرسة في شعور شاعر التأويل. التكوينات الداخلية داخل البناء الشعري وما يحمله من علاقات باطنية وقيمة إيجابية تمثل الرمز وسر متعته. إن الغموض في الشعر العربي هو بمثابة الملح في الطعام بحيث يجعله محببا وجاذبا لكن شرط ألا تزيد جرعة الغموض فتصبح القصيدة غير مستساغة وصعبة الفهم والتأويل. والغموض أنواع تتمثل فيما يلي:

- ❖- الغموض الدلالي وهو استخدام اللفظ رمزا لفكرة معينة استخداما شخصيا دون التنويه ببعض الارتباطية.
- ❖ - الغموض الناجم عن استحالة الصورة وتفسير مدلولها.
- ❖ - غموض الإثقال وهو الغموض الناجم عن إثقال النص بالرموز.

إن الاستغراق في الرمز إلى حد الغموض لاقى انتقادا واسعا. إذ ليس معنى الوضوح في القصيدة وتيسير وصول مقصود الشاعر إلى فؤاد وعقل المتلقي أن ينفي عنه التكثيف الفني وإن كان يحمل بين طياته العديد من الدلالات والرموز الموحية والمعبرة. إذ يرى البعض أن هذا الغموض- والذي يجعل العمل الشعري كالمعميات والطلاسم الملغزة- لا يمكن أن يكون معيارا للحداثة والتفرد الإبداعي إنما هو ثمرة مرة من ثمار التخمة المادية وطغيان الفردية ولا يجلب أي فائدة مرتجاة للقارئ بل يحيله إلى بحر من الحيرة ويفقده اهتمامه بالعمل الشعري ويصعب عليه مهمة تأويله. وعليه لا بد أن يكون استخدام الرمز واضحا جليا لا يغرق المتلقي في متاهات بعيدة عن جوهر الموضوع الحقيقي وأن تكون هناك صلة وطيدة بين الرمز وتأويله.

يقول تودوروف في هذا المجال: "إن الفرق الأساس بين الخطاب والرمز لا يكمن في الطابع اللغوي وإنما يبرز من كون المعنى الحقيقي والمعنى المجازي يوجدان معا في الخطاب بينما لا يوجد سوى أحدهما في الاستثارة الرمزية ومن ثمة فالمتلقي يفهم الخطاب غير أنه يقوم بتأويل الرموز ". "9" فمن خلال هذا القول نلمس تلك العلاقة الوطيدة بين الرمز والتأويل بحيث "يغدو الرمزي مدخلا مركزيا للضرورة التأويلية عبر فعل التلقي نفسه... غير أن هذه الضرورة التأويلية ليس يحددها الإنتاج النصي وحده وإنما تنبع من رغبة المتلقي وإرادته. إن التأويل

الرمزي يغدو استراتيجية تأويلية منطلقها المتلقي وموقعها النص"."10".

نستنتج من خلال هذه النبذة التعريفية للرمز أنه الإشارة والإيماء .وأيضا هو تكثيف دلالي إيحائي لصورة تتبدى في مخيلة الشاعر وتكمن وظيفته في إعطاء النص بعدا عميقا وحركة فاعلة في كلماته ودلالاته ذلك لأنه يجتاز الحاضر إلى الماضي في تناسق وتناغم بديع قصد تمكينه من التعبير عن الفكرة المراد طرحها وبالتالي إيصال الرسالة والمعنى إلى القارئ وبلوغ الهدف المنشود "هو طبيعي حين يرى الشاعر أن الدلالة اللغوية قاصرة عن تقرير حالات النفس بكل ثرائها وعمقها فيلجأ إلى الإيحاء بها وإثارة ما يشبهها في وجدان المتلقي عن طريق الرمز والموسيقى الشعرية وقد يضطره ذلك إلى أن يحدث في متن اللغة وقواعدها ما لا عهد لها به حتى يهيئ لها كيانا جديدا تستطيع بواسطته أن تؤدي وظيفتها الإيحائية المبتغاة. فيقترن تعقيد التركيب الكلامي بتعقيد الجو النفسي المراد إثارته بل لقد يتعمد الشاعر إلقاء بعض الظلال على معانيه وتغليفها بغلاف سحري يجنبها خطر البوح المبتذل"."11"

ولفك شفرة التعقيد الموجود في النص الشعري لجأ من تعرضوا له إلى التأويل لفهمه وتوسيع دائرة استيعابهم له. و"التأويل" كلمة دارت في اللغة ووردت في القرآن الكريم حوالي سبع عشرة مرة ويعني التأويل العودة إلى أصل الشيء سواء كان فعلا أم حديثا وذلك لاكتشاف دلالته ومغزاه"."12" أما السيوطي فيقول عن التأويل: "أما التأويل فأصله من الأول وهو الرجوع فكأنه صرف الآية إلى ما تحتمله من المعاني وقيل من الإيالة وهي السياسة كأن المؤول للكلام ساس ووضع المعنى في موضعه "."13" فالتأويل – بوصفه نوعا من المعرفة – هو إرجاع المعنى إلى أصله قصد التماس ما يقوله النص والبحث عن عبقرية الشاعر المبدع ومن ثمة تفسير وتحليل الظواهر النفسية والحيوية للرمز الذي يحتويه هذا النص. وفي هذا السياق يقول نصر حامد أبو زيد: "إذا كانت كلمة تأويل تعني الرجوع إلى الأصل وتعني أيضا الوصول إلى الغاية والعاقبة فإن الذي يجمع بين الدلالتين هو دلالة الصيغة الصرفية (تفعيل) على الحركة وهي دلالة أغفلها اللغويون في تحليلهم المعجمي لذلك يمكن القول إن التأويل حركة بالشيء أو الظاهر إما باتجاه (الأصل) أو في اتجاه (الغاية) و(العاقبة) بالرعاية السياسية لكن هذه الحركة ليست مادية بل حركة ذهنية عقلية في إدراك الظواهر"."14".

أشكال الرمز

يختلف الرمز في الشعر العربي من شاعر لآخر حسب الرؤية الشعرية وحسب اختلاف الثقافات والمذاهب الشعرية والمرجعيات الأيديولوجية. ذلك لأن استخدامه يعد مصدر قوة في

اللغة الشعرية عندما يراد به إثارة شيء من الغموض في ألفاظ القصيدة أو إيقاعها وقد يكون الرمز إما كلمة أو صورة أو شخصية ويحتوي على أكثر من دلالة انطلاقا من مستويين اثنين هما " ظاهري وباطني " وهذا الأخير يحتم علينا استعمال التأويل لاستخراج المعنى الباطني الخفي للنص وبالتالي الكشف عن مدلوله الحقيقي حيث نجد الدكتور محمد عابد الجابري ينعت هذه العملية بـ"القراءة التأويلية أو القراءة ذات البعدين وهي قراءة تعي منذ اللحظة الأولى كونها تأويلا فلا تتوقف عند حدود التلقي المباشر بل تريد أن تساهم بوعي في إنتاج وجهة النظر التي يحملها أو يتحملها الخطاب "."15" هنا نلمس أن الرمز لم يوظف بنفس الطريقة في كل القصائد بل هناك عدة طرق لتوظيفه منها..

- (التوظيف الحرفي) وهو أن يذكر الرمز بحرفيته.
- (الرمز الجزئي) يقصد به أن يذكر بعض الخصائص الشكلية والمعنوية للرمز.
- (التوظيف الإيحائي) ومعناه أن الرمز يحيلنا إلى مرجع ما أي أنك تلمس روح الماضي فيه وهذا ما يتطلب ثقافة تراثية واسعة.
- (أسلوب القناع) وهو استدعاء شخصية ما وتقمصها من قبل الشاعر.

أما مسوغات اللجوء إلى استخدام الرمز فتعود إلى عدة أسباب نذكر منها "تلبية الحس الحضاري وتجنب الرتابة والرغبة في التجديد ورفض التصريح – البعد عن التسطيح في الفكرة وطلب التداعي الحر للمعاني – الخوف من السلطة والرغبة في إثارة المتلقي – السعي لتكثيف الصورة بكلمات قليلة.. أنواع الرموز

إذا كان الرمز أداة قيمة حديثة للتعبير والإيماء فإن هذا يعني أن حسن توظيفه يرتقي بالمنظومة الشعرية (القصيدة) ويغنيها بالطاقات الإيحائية الفكرية منها واللفظية ويبعد الرتابة عنها ويحقق فجائية الإثارة ويكسب الأفكار موسيقى والألفاظ إيقاعا وذلك من خلال أنواع كثيرة منه نجملها فيما يلي..

1- الرمز الأسطوري

إن الأسطورة هي الجزء الناطق من الشعائر البدائية الذي نماه الخيال الإنساني واستخدمته الآداب العالمية فهي تلك المادة التراثية التي صيغت في عصور الإنسانية الأولى وعبر بها الإنسان في تلك الظروف الخاصة عن فكره ومشاعره بالحواس والفكر واللاشعور واتحد فيها الزمان والمكان والتحمت كل الموجودات في كل متفاعل مع مشاهد الطبيعة وقوى ما

وراء الطبيعة حيث اتخذت من التجسيد الفني وهو لغة الشعر الحق وسيلتها للتعبير عن كل خلجة من شعور وكل خاطرة من فكر في تلقائية عذبة محببة تنطوي على إيمان عميق بأنها تعبر عن الوجود.

يعرف الباحث الفرنسي كلود ليف (ستراوس) الأسطورة بأنها "حكاية تقليدية تلعب الكائنات الماورائية أدوارها الرئيسية"."16" وهي أيضا شكل من أشكال التعبير يجمع بين الفكر والخيال والوجدان وأداته الرمز وكنهها لا يكمن في أسلوب صياغتها ولا نمط سردها ولا في تركيبها بل في التاريخ الذي ترويه "17" وخلف كل لغة شعرية ترقد طبقة من الإشارات والرموز الأسطورية حيث لجأ الشاعر العربي إلى توظيف الرمز الأسطوري في شعره ليطبقه على عصره الذي أخذ بالانهيار والتداعي ليحقق حالة الحلم الذي يرتكز على معطيات الماضي التي تتمثل في أساطير الانبعاث. نجد أن الشاعر يقدم ذاته للمتلقي باستخدامه للرمز الأسطوري وهو لا يصوغ أساطير بل يشكل ويمتزج معجمه الشعري أحيانا برموز الأساطير وعناصرها فتسري الأسطورة في نسجه الشعري كما تصهر عضويا مع بناء القصيدة. .سنحاول الآن إدراج بعض الأمثلة التي تتبلور فيما يلي..

❖يقول أدونيس في قصيدة "نشيد الغربة "في ديوان (أوراق الريح):

فينيق إذ يحضنك اللهب أي قلم تمسكه
والزغب الضائع كيف تهتدي لمثله
وحينما يغمرك الرماد أي عالم تحسه
وما هو الثوب الذي تريده واللون الذي تحبه.

يستوقفنا في هذا المقطع رمز "فينيق "وهو طائر أسطوري كانت حياته تمتد لمدة 500 سنة وهو من الأساطير العربية الفينيقية وتقول الأسطورة إنه طائر كان يعيش في القفار العربية وعندما يحين موته كان يحضر محرقته بنفسه وبعد أن يتحول جسده إلى رماد يخرج من هذا الرماد "فينيق" آخر فتي يعيش المدة نفسها وهكذا تستمر الحياة. والشاعر أدونيس هنا يسأل الطائر "فينيق" كيف السبيل إلى الرجوع إلى الحياة حتى تتعلم الأمة العربية وتحيا من موتها من جديد.

ومن أهم شعراء هذا النوع الشعري أيضا بدر شاكر السياب إذ يستوقفنا هذا المقطع من قصيدته "سفر أيوب" حيث يقول:

1❖ وقام تموز بجرح فاغر مخضب.
2❖ يصك "موت" صكة محجبا ذيوله.

3❖ وخطوة الجليد بالشقيق والزنابق..

نلاحظ أن المقطع يحتوي على كلمتين، لا بد أن نقف عندهما (تموز –موت) حيث إن "تموز" في الأسطورة السومرية والبابلية هو نفسه أدونيس في الأسطورة الفينيقية وهو أوزوريس في الأسطورة الفرعونية وتمثل عودته إلى الحياة كل عام أي عودة الحياة إلى الأرض ممثلة في الربيع. وفي هذا المقطع يشير السياب إلى أن تموز رغم جراحه التي أصيب بها – كما جاء في الأسطورة - فإنه قام وعاد إلى الحياة وهي دعوة للأمة لكي تنهض وتحيا رغم جراحها كما نهض تموز وهذا رمز أسطوري واضح ذكر بحرفيته فهو توظيف حرفي."18"

نجد أيضا رمز بابل في قصيدة بلاد الرافدين للشاعرة المغربية مالكة عسال فيما يلي..

والسفهاء

يغتالون مجد بابل

بتلابيب التراث يعبثون

بالمشارط

يجترحون خيط الفجر

نجد أن رمز بابل يتحول من دلالته القديمة ليتعايش مع الواقع المعاصر ويعبر عن دلالة جديدة تحاكي الواقع وتعكسه أدبا فالشاعرة تتجاوز الحدود الجغرافية وتحكي مقطوعة تتعايش فيها مع بابل العراقية. بابل التي تتقاطع مع عدد كبير من المعاني التي تعبر عنها الشاعرة وفي استخدام هذا الرمز تتشكل ثنائية (القرب –البعد) فبابل بعيدة في الواقع لكنها قريبة إلى درجة الاتحاد مع ذات الشاعرة."19"

نستنتج من خلال هته الأمثلة أن الرمز الأسطوري هو نتاج معرفي جمعي له امتداد في الماضي والحاضر والمستقبل وبه يحضر الماضي في وعاء الحاضر ليمتد ويتكرر في المستقبل ومن أشهر الرموز الأسطورية ما يلي..

❖- السندباد هو رمز الرحلة والمغامرة – ابن سيرين هو رمز العلم والزهد والورع.

❖- فينوس هو رمز القوة الخلاقة والجمال والحب – سيزيف رمز النضال والصراع قصد تحقيق الهدف والتفاؤل – أوديب رمز صراع الإنسان مع قدره والبحث عن الذات.

❖- نارسيس رمز الغرور والأنانية – شهريار رمز التجبر والتسلط والفراغ.

❖- الرسول محمد (ص) رمز المواقف البطولية والنضال من أجل الإسلام. –النبي يوسف (ع س) رمز الجمال والمعرفة والخير وحسن التدبير- قابيل رمز الشر –هابيل رمز ضياع الحق –يأجوج ومأجوج رمز الفساد في الأرض –أيوب رمز الصبر..

2- الرمز التاريخي

أصبح التاريخ في سياق الخطاب الشعري من المصادر الغزيرة التي يستقي منها الشاعر المعاصر الكثير من الشخصيات والأحداث والوقائع والأماكن التي باتت تشكل جزءا من الإرث التاريخي الذي ترسخ في ذاكرة المنظومة الثقافية العربية متخذا بذلك أقنعة معينة للتعبير عن موقفه المبهم أو ليحاكم نقائص العصر الحديث من خلالها وبالتالي الوصول إلى تحقيق غاية شعرية تؤدي وظيفة ودلالة جمالية أو فكرية. يقول الدكتور محمد بن العربي الجلاصي" إن الرمز التاريخي يسوي المعنى على هيئة خطابية ويكسبه صفة الدلالية ويجعل الإيحاء خطة في البلاغ محددة لمنطق تطور الشعرية العربية." "20".

من أبرز الشعراء البارزين في هذا النوع نجد سميح القاسم في قصيدته "انتقام الشنفرى "الذي يستخدم هذه الشخصية التاريخية قناعا تختفي وراءه شخصية الفلسطيني الذي منعته قبيلته من ممارسة حقوقه الفطرية والمشروعة بحيث خرج عن تعاليم ومبادئ القبيلة وثار عليها قائلا..

أخاطبكم من رماد العصور وصحراء أحزانها المجدية

أنا الشنفرى

رسول الصعاليك والأغرية

بعثت لأنقذ مجد الأباطيل من رأسه

لأحرق يابس ليل الطواغيت والأخضر.

ما يميز هذا المقطع هو توظيف شخصية تاريخية لها دلالات رمزية في تاريخ ثقافتنا العربية. فالشاعر استلهم من رمزية هذه الشخصية صورة شعرية تعبر عن حالة الفلسطيني المغتصب في كل حقوقه فهو يخاطب اليهود الطواغيت ويهددهم بشخصية الشنفرى التي يتقمصها. وعليه فإن توظيف الرمز التاريخي هنا لم يكن من أجل التوظيف لحادثة التاريخ وإنما استغل هذه الشخصية ليعطي فكرته ومقصوده بعدا دلاليا وجماليا في القصيدة. وها هو ذا الشاعر محمد علي الرباوي يوظف مدينة قندهار في قصيدة من ديوانه (كتاب الخراب) كرمز تاريخي عن الأماكن إذ يقول..

هي ذي قندهار

بمآذنها

تقذف الرعب

في قلب نيرون قذفا

يضيق على صدره الغرب ضيقا

بما رحبا.

وكما للشخصيات التاريخية دور كبير في الترميز الشعري فإن للأماكن كذلك أهمية كبيرة في الإشارة وإرسال رسائل هامة في الشعر المعاصر فعندما يذكر هذا الشاعر قندهار لا يذكرها حبا في التعريف بالمدينة وإنما يشير إليها في شعره للتعبير عن أهميتها في صد العدوان الغربي الأمريكي خاصة الذي عبر عنه هنا الشاعر بنيرون الذي يرمز إلى التهور والجنون الغربي في الاعتداء على السكان الآمنين في بيوتهم. "21".

أما ما يمكننا استخلاصه في نهاية هذا النوع من الرموز فهو أن توظيف الرمز التاريخي في الخطاب الشعري الحديث لا يبغي الشاعر من ورائه سرد التاريخ فقط بل خلق تاريخ جديد منشود يتجاوز التاريخ المفقود والتاريخ الموجود.

3- الرمز الديني

ونقصد به تلك الرموز المستقاة من الكتب السماوية (القرآن- التوراة- الإنجيل) ويأتي في مقدمة الرموز الدينية الموظفة في القصيدة المعاصرة رمز المسيح وموضوع الصلب. ومن بين الشعراء المعاصرين الذين وظفوا رمز المسيح في شعرهم نجد الشاعر العراقي عبد الوهاب البياتي في قصيدته "الصلب" فالرمز فيها لم يكن صريحا إنما ضمن الشاعر قصيدته بعض القرائن التي يمكن أن تهدي القارئ إلى معرفة المسيح إذ يقول..

في سنوات العقم والمجاعة
باركني
عانقني
كلمني
ومد لي ذراعه
وقال لي
الفقراء ألبسوك تاجهم
وقاطعوا الطريق

و البرص والعميان والرقيق
وقال لي إياك
وأغلق الشباك.
❖❖❖❖❖❖❖

من أين لي يا مغلق الأبواب

مائدتي. عشائي الأخيرة في وليمة الحياة

فافتح لي الشباك مد لي يدك آه.

واضح تماما أن الدلالات التي اكتسبتها كلمات مثل "باركني – كلمني – الفقراء – البرص – العميان – مائدتي...) ذات دلالات يمكن أن تقترن بشخصية المسيح. وكان الشاعر في هذا المقطع يستنجد بالمسيح الذي يشفي المرضى ويحيي الموتى أن يحي الأمة العربية من موتها."22"وعليه يمكننا استخلاص أن توظيف هذه "الرموز المقدسة" في شكل رموز تمنح تبادلاتها الإيحائية من بناء النص الشعري بما أنها ترتبط بواقع تجربة مخصصة زمانا ومكانا. فتعامل الشاعر مع الرموز الدينية هو تعامل يحتكم إلى مقتضيات المتخيل الحداثي للتصور الشعري المرتبط بالتجربة الذاتية لأن "العناصر الرمزية التي يستخدمها الشاعر المعاصر بعد أن يستكشف لها بعدا نفسيا خاصا في واقع تجربته الشعورية معظمها مرتبط في الأسطورة أو القصة القديمة بالشخوص أو بالمواقف. وهذه الشخوص أو المواقف تعامل شعري تستدعيه التجربة الشعورية الراهنة لكي تضفي عليها أهمية خاصة. فالتجربة إنما تتعامل مع هذه الشخوص والمواقف تعاملا شعريا على مستوى الرمز فتستغل فيها خاصة الامتلاء بالمغزى أو بأكثر من مغزى. تلك الخاصية المميزة للرمز الفني".23".

4- الرمز الأدبي

نقصد بالرمز الأدبي أن الشاعر يحاول استيقاء أفكاره وصوره ونوافذه الفكرية والفنية والجمالية من واقع تجربته الذاتية الممتزجة في الآن نفسه مع واقع التجربة الجماعية وذلك بأن يتخذ نموذجا واحدا من الشعراء القدامى كالمتنبي أو ابن الرومي أو امرئ القيس وغيرهم أو مجموعة منهم ويستحضر وجودهم باعتبارهم تحولوا مع مرور الزمن إلى موضوع فني ومشغل جمالي يمكن أن يستفيد منه الشاعر المعاصر لإنتاج دلالات رمزية جديدة في خطابه الشعري. ونستشهد في هذه المرحلة بمقطع من قصيدة "سعدي يوسف" المعنونة بـ: "من أين تأتي القصيدة ". إذ يقول...

فجأة تصبح القصائد أحجارا... هو الصحو

في زمان التردي /الارتداد /الدريئة

الأمل المصهور...

من أطلق النسور على لحم الفتاة الوديعة انتبه الحلاج...

بيت على الذرى كان مسكونا بأشباحنا

زمانا طويلا

وتركناه مسرعين إلى السوق"24".

إن حضور شخصية الحلاج- الذي عرف بنزعته الصوفية- بكثافة في هذا المنجز الشعري إشارة لإبراز ما يتميز به النص الصوفي من شعرية تبحث في كنه المعنى وفيما يشد الإنسان لوجوده ويؤسس لكينونته. كما أنه يعتبر دلالة على ما اكتسبه هذا النص من خصائص شكلية ومضمونية تقوم على عدة ثنائيات فهو "مجاز في مجاز ورمز على كناية واستعارة حيرة وتساؤل - عشق ومعرفة... تعكس حرقة في الوجدان أو فكرة في الخيال "."25". فاستحضار❖ الحلاج ❖ هنا هو وجه من وجوه استحضار النص الصوفي الذي يتشاكل في مستوى الرؤيا الفنية والدلالية مع النص الشعري الحديث.

وهو ذا الشاعر المغربي مصطفى المسعودي أيضا يوظف رمزين من الرموز الأدبية في قصيدته (ارفع رأسك) حين يقر بما يلي...

اااااه كم اكره هذا الواقع....اااه

أورثني المتنبي نخوته..

أورثني ابن الرومي دمعته....

أورثني المجنون شقاوته...

أورثني الذل العربي الراهن بلواه.

ما أصعب أن يعيش الإنسان سجينا

❖❖❖❖❖❖❖❖

لكن.....ارفع راسك...

في أعماقك تحمل روح الله."26"

نلاحظ أن هذا الشاعر مشبع بأحاسيس الذل والمهانة التي يعاني منها الإنسان العربي في خضم سيطرة الأنظمة العربية وسجنها وقهرها للمبدع العربي في كل المجالات مما جعله يستحضر هته الرموز الأدبية القديمة للتعبير عن القيم والجواهر الحسان التي فقدها الإنسان المعاصر. ومن ثمة حاول مقارنة نفسه بهؤلاء الشعراء الثائرين والمتمردين مما يدل على رفضه لواقعه المعيش إذ يحس بنخوة المتنبي العربية وحرقة دمعة ابن الرومي في تفاعله مع أزمة العرب ككل. فهو يشير إلى الخمول وموت الضمير العربي الذي اعتاد على الاستكانة والانبطاح والصمت فهو بهذا يرفض الذل وظلام الواقع ويندد بروح الانكسار والانهزام التي تعودت عليها الأمة العربية في ظل صمتها القاتل. وفي الأخير يخاطب الإنسان العربي ويأمره برفع رأسه وعدم استسلامه مرة أخرى ثم يستنجد بالمولى عز وجل قصد معاقبة الظالم وقهر المتسلط.

5- **الرمز الصوفي.**

إن الرمز عند الشعراء الصوفيين مرتبط أشد الارتباط بالتجارب التي عايشوها وورثوا فكرها عن سابقيهم مما جعل تجربتهم الشعرية تجسد نوعا خاصا من الفكر والأسلوب وكان الرمز وسيلة للتلويح والدلالة على مكنونات أسرارهم التي لا يجب أن يطلع عليها غير أهلها كما يبرز جليا في قول ابن الفارض التالي.. وعني بالتلويح يفهم ذائق غني عن التصريح للمتعنت

بها لم يبح من لم يبح دمه وفي الإشارة معنى والعبارة حدث. "27"

ومعناه أن كلامه لا يفهمه إلا أولو الذوق ومن ذاق عرف الذين يفهمون الكلام بالتلويح ولهذا أغنته الإشارة عن التصريح والعبارة التي قد تبيح دمه للذين لا يفهمون مقاصده من أجل ذلك اعتمد الرمز والإشارة بدل لغة المباشرة.

إن التجربة الصوفية جمعت بين نوعين من الرمزية: أولها الرمزية الأسلوبية بما تحتويه من صور بيانية وخيالية وبيان وبديع... أما الثانية فهي الرمزية الموضوعية التي تعنى بموضوعات الصوفية وفلسفاتهم عن الحب الإلهي والخمر والكون والاغتراب ووحدة المعرفة والنفس... وغير ذلك.

إن أكثر الرموز استعمالا عند الشعراء الصوفيين هو الرمز الأنثوي لأنهم اتخذوا من الأنثى رمزا دلاليا موحيا بالحب الإلهي ومن ثمة حاولوا التأليف بينهما "لأن كل آخر يتضمن ما قبله والمرأة خلقت بعد آدم ولذا تتضمن صورة العالم فهي أجمل ما خلق الله"."28" وفي هذا السياق يقول الدسوقي..

وما شهدت عيني سوى عين ذاتها لأن سواها لا يلم بفكرتي

بذاتي تقوم الذات في كل زروة أجدد فيها حلة بعد حلة

أنا موجد الأشياء من غير حاجة بكره كان الكون من غير التي

فليلى وهند والرباب وزينب وعلوا وسلمى بعدها وبثينة

عبارات أسماء بغير حقيقة وما لوحوا بالقصد إلا بصورتي"29"

فهذا المثال يشير إلى طريقة الصوفية في التلويح بالرمز الأنثوي بحيث يجمعون بين العيني والمجرد ويصنفون التصور الذهني ضمن الأزليات بوصفه نفيا مفرغا وسلبا لمفهوم البدء الزماني إلى مدرك محسوس يدل على دور المرأة وما تؤديه من جمال بصورة مجردة.

وهذه النظرة إنما هي نظرة تجريدية ميتافيزيقية لا يقر من خلالها الشاعر بالأشكال العادية وإنما احتفاله بالمفاهيم الرحبة التي ترتبط بقدرة هذه الأشكال على الرمز عما تكتنزه بداخلها من مشاعر الحب المشتعل تجاه محبوبته التي لا يريد الإفصاح عنها والتصريح بحبه لها مما جعله حرا طليقا في عالم الجمال المطلق الذي يشير إلى الأبدية أو اللانهائية "30". وهكذا استطاع الشاعر الصوفي مستخدما رمز الأنثى أن يخترق حجب الحقيقة إلى الفردوس البعيد وهو قادر على أن ينقل تصوراته للآخرين مدركا لطبيعة هذا الرمز وما تملكه صفاته من إثباتات يستطيع من خلالها تجاوز ما هو عليه وصولا إلى الحقيقة اللامتناهية.

وفي السياق نفسه نجد الشاعر ياسين بن عبيد يستلهم رموز الحب العذري في تجربته الشعرية التي تدل على حبه الفائض واللامتناهي لمحبوبته حيث يقول..

أنا في عيونك... ذبت أسيرا... أسيرا.. ولا زلت سائر

نشرت ظلالي هناك كطفل على شفتيه... إليك يسافر

وملمت شملي بلا موعد إلى قبلتيك بحبي أهاجر"31" .

نلاحظ في هذا المقطع الشعري أن الشاعر يتغنى بعيون محبوبته وعشقه لها لدرجة الذوبان والعبودية ويشبه نفسه بالطفل المدلل عندما يهاجر إليها مبرزا شوقه وحبه مما يدل على تقديسه لرمز الأنثى وإثبات علاقة الروح الإنسانية بالذات الإلهية وهي علاقة تنافر وتضاد مما يعزز الثورة على الواقع وتجاوزه إلى عالم الأحلام والرؤى.

6- الرمز الطبيعي

يعد الرمز الطبيعي من أهم الأسس الأسلوبية التي يقوم عليها تشكيل الصورة الشعرية عند الشاعر وأحد مكوناتها الأساسية بحيث يسعى من خلال التصوير الرمزي إلى تجاوز ما اخترعته القرائح واستنتجته العقول فيما يتعلق بحضور الطبيعة في القصيدة الكلاسيكية ومن ثمة يبرز رؤيته الخاصة تجاه الوجود ويعمل جاهدا على تخصيبها وتطويرها من خلال استكناه المعاني استكناها عميقا مما يضفي على تجربته الشعرية نوعا من الفردية والخصوصية. إن الشاعر العربي يحاول السمو باللفظ الدال على عنصر الطبيعة إلى مستوى الرمز قصد إلباس المعنى حلة جديدة تتوافق والحداثة الشعرية التي يسعى إليها والسبب في ذلك أنه يرى أن الطبيعة شيء مادي متصل به وهي امتداد لكيانه وتتغذى من تجربته.

ومن أمثلة الدلالة الرمزية في التعبير عن عناصر الطبيعة التي توحي بالقوة والغموض رمز البحر عند محمود درويش في قصيدة «أغنية إلى الريح الشمالية" إذ يقول:

وكسرني الرحيل

وتقاسمتني زرقة البحر البعيد

وخضرة الأرض البعيدة "32"

نلاحظ أن الشاعر هنا يحاول إكساب اللفظة دلالة شعورية خاصة به فمن خلال هذه الصورة الاستعارية (المكنية) التي تحتوي على تشبيه بليغ يرسم درويش صورة تخيلية للبحر يكفي بعض التجريد للانتقال من معناها المجازي إلى الحقيقي كما دعم بعده الحسي بأداة مساحية للقياس في إطار هذه العلاقة التشبيهية الدالة على البعد.ومن الرموز الأثيرة عند محمود درويش نجد الأرض- التراب – المطر – الزيتون – يافا – حيفا – الريح – الليل – الحجر – القمر- الرمل – الفراشة...

ننتقل إلى شاعر آخر هو سعدي يوسف في قصيدته "السكون" حيث يقول:

يهبط الليل أزرق بين الخطى والنجوم... أرى

شجرا أزرق وشوارع مهجورة وبلادا

من الرمل لي وطن... ثم ضيعته لي بلاد...

وهاجرتها... كم أحس النجوم القريبات

ملصقة بالخطى أيها الشجر الأزرق - الخشب

الأزرق. الليل... أنا انتهينا إلى عالم

يتراكم أو يبتدي أو يموت "33".

الملاحظ على هذا المقطع أن الشاعر ابتدأ بـ"هبوط الليل "وانتهى بلفظة "يموت" وبين البداية والنهاية هناك كشف للمعاني الخفية وراء الكلمات بحيث يتحد القارئ والشاعر في خوض مغامرة المجهول للكشف عن سحر القصيدة وسر جمالها وتعددية معانيها ومن جملة تأويلات هذا المقطع نلمس ما يلي – زرقة الليل تدل على الألم والعذاب وبشاعة الموت في ظل ضياع الوطن وبعد الشاعر عنه - الشوارع المهجورة والرمل والضياع والهجرة والخشب والانتهاء والتراكم كلها رموز تدل على حالة الوهن والمرض والضياع التي يعيشها الوطن العربي. وبهذا يكون الشاعر قد وظف شبكة من الرموز الطبيعية ساعدته في توسيع فضاء المعنى في تجربته الشعرية الإبداعية.

7ـ الرمز الشعبي

إن التراث الشعبي يعد من بين المصادر المهمة التي يستوحي منها الشاعر رموزه لما يحتويه من قصص شعبية وروايات عجيبة وحكايات غريبة التي تندرج كلها ضمن نتاج الموروث الشفوي الشعبي للثقافة العربية وأصبح استخدام هته الرموز يفيد في استحضار دلالتها عن طريق الثقل المكتنز في هذه الدلالة ليس في توظيفه كوصف مباشر بل في الاستخدام الإيحائي له وبالشكل الذي يغني العمل الفني ويشحنه بطاقة جديدة اعتمادا على ثقافة الشاعر الشعبي الذي أدرك لاحقا أهمية هذا التحول في فهم دلالة الرموز واستخدامها بنجاح.ومن أبرز الرموز الشعبية الأكثر تواترا في المنجز الشعري الحديث هو رمز "السندباد" الذي تعددت وجوه استخدامه من طرف الشعراء بحيث يمكن إحالتها إلى وجهين رئيسيين – وجه ما زال حضوره قائما في الساحة يحاول تغيير المجتمع من حوله وتثويره - ووجه خرج من الساحة منفيا مقهورا. يقول البياتي في هذا المقطع:

السندباد أنا

كنوزي في قلوب صغاركم

السندباد بزي شحاذ حزين

عار طعين

النمل يأكل لحمه

وطيور جارحة السنين

نلاحظ أن البياتي يتحدث عن الفلسطيني المهاجر الذي حاول أن يثور لكنه أجبر على الخروج من الساحة."34". وفي السياق نفسه نجد بدر شاكر السياب في قصيدة "افياء جيكور"يقول..

ردي إلي الذي ضيعت من عمري

أيام الهوى... وركضي خلف أفراس

تعدو من القصص الريفي والسحر

ردي أبا زيد لم يصحب من الناس

خلا على السفر

إلا وما عاد ردي السندباد وقد ألقته

في جزر يرتادها الرخ ذات أمراس "35"

نلمس في هذا المقطع الشعري للسياب أنه وظف شخصيتين بارزتين من أبطال الحكايات الشعبية يتمثل الأول في "أبي زيد الهلالي " والثاني تجسد في "السند باد" ليعبر عن رغبته في العودة إلى الماضي قصد استعادة لحظات جميلة من التاريخ القريب (الطفولة) من خلال استحضار ذكريات من القصص الريفي. أما الشيء الذي يجمع بين البطلين المذكورين فهو البعد والترحال وعدم معاودة الرجوع إلى الديار وهذا هو ما يربط الشاعر بهما حيث إنهما يعبران عن معاناته الذاتية التي تكمن في البعد عن الديار والغربة والمعاناة من ألم الوحدة والعزلة. أما ما يمكننا استخلاصه فهو أن "أبا زيد والسندباد" قد تحولا من بطلين خرافيين في القصص الشعبي إلى رمزين شعريين يعبران عن مبتغى الشاعر الذي سعى إلى تطويع نماذج من التراث الشعبي كأدوات رمزية لبلوغ شعرية المعنى.

خلاصة

تأكد لنا على ضوء ما سبق أن الشاعر العربي في العصر الحديث تمكن من تجاوز الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية التي تمنعه من التعبير عن أفكاره ورؤيته الإبداعية بعد أن وجد في الرمز الشعري أداة تعبيرية مناسبة تمنحه الحرية والأمان وتمكنه من فسح المجال أمام التعبير عن مكنوناته وخلجات صدره التي يكتنزها في ذاته وبالتالي مواجهة

قضايا عصره المصيرية بل تجاوزها إلى التعبير عن قضايا أمته فخرج بالشعر من الذاتية إلى الموضوعية. وعليه فإن الرمز هو نتاج معادلة إبداعية تقوم على التفاعل بين الماضي والحاضر والتناغم بين الثابت والمتغير وتأويله يعتمد أحيانا على حركة الذهن في اكتشاف أصل

الظاهرة أو في تتبع عاقبتها لأنه قائم على نوع من العلاقة المباشرة بين الذات والموضوع فهو بهذا لا يعطي مفاتيحه إلا لمن عاش التجربة وتذوق حقيقتها. وختاما نستنتج أن إنتاج الرمز يظل بابا من أبواب الامتثال لسنة التجربة الشعرية التي تسعى دائما إلى الكشف عن عالم غامض يظل أبدا في حاجة إلى الكشف والإيضاح والتأويل.

هوامش البحث

1- ❖ د. درويش الجندي /الرمزية في الأدب العربي /نهضة مصر للطباعة والنشر /القاهرة

❖ د محمد فتوح احمد /الرمز والرمزية /دار المعارف /ط3/ 1984.

❖ أنا بلكيان آن / الرمزية دراسة تقويمية/ ترجمة الطاهر مكي وغادة حنفي/ دار المعارف /1985.

❖ د. كمال خضر /مقال بعنوان مفهوم الرمزية في التحليل النفسي /مجلة علم النفس / العدد السادس /6 يناير 2002.

❖ د. عاطف جودة نصر / الرمز الشعري عند الصوفية /المكتب المصري لتوزيع المطبوعات /1988.

2- ابن رشيق القيرواني /العمدة /184.1/دار الكتب العلمية /بيروت /1983.

3- الجاحظ /البيان والتبيين /70.1.

4- الولي محمد /الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي /المركز الثقافي العربي / بيروت /1996 /ص 199.

5- د. صلاح فضل / نظرية البنائية / الهيئة المصرية العامة للكتاب /مصر/ ص29.

6- تشارلز تشادويك /الرمزية /ترجمة نسيم إبراهيم /الهيئة المصرية العامة للكتاب /1992/ ص 39- 40.

7- المرجع نفسه /ص47.

8- عز الدين إسماعيل /الشعر العربي المعاصر – ظواهره وقضاياه الفنية والمعنوية /دار العودة / بيروت /1972/ ص198.

9- تودوروف –نقلا عن فريد الزاهي /النص والجسد والتأويل /إفريقيا الشرق / المغرب/2003/ص57.

10- فريد الزاهي /المرجع نفسه /ص57. 11- د. محمد فتوح احمد /الرمز والرمزية /ص410- 411.وراجع أيضا ص304- 305 من المرجع نفسه/وانظر كذلك عز الدين إسماعيل /الشعر العربي المعاصر ص163- 164.

12- د. نصر حامد أبو زيد /مفهوم النص – دراسة في علوم القران – الهيئة المصرية العامة للكتاب/1990/مصر/الفصل الخامس(التفسير والتأويل) ص247- 273.

13- ينظر جلال الدين السيوطي /الإتقان في علوم القران /المكتبة الثقافية /بيروت /1973/ص173.

14- نصر حامد أبو زيد /مفهوم النص /المركز الثقافي العربي /بيروت /1990 /ص230.

15- ينظر محمد عابد الجابري /الخطاب العربي المعاصر /دار الطليعة /بيروت /1985/ص9.

مقالة بعنوان ما معنى الأساطير 16- www.zahraaa.com.

17- ما هي الأسطورة /منتدى المسعفين الأحرار. Http//secouriste kanak

. 18- مقالة بعنوان الرمز الشعري / ما هو الرمز وما هي Http//atijania-online.com

19 - مقالة بعنوان الرمز في http//ueimarocains.wordpress.com اشكاله.

الشعر المغربي المعاصر/لمجموعة اتحاد كتاب الانترنيت المغاربة /الثلاثاء 25 يناير 2011.

20- محمد بن العربي الجلاصي /مساهمة في دراسة انبناء المعنى في الشعر العربي – قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية (رسالة دكتوراه)ج1/تونس /جامعة منوبة/2002/ص14.

21- المقالة السابقة /الرمز في الشعر المغربي المعاصر /مجموعة اتحاد كتاب الانترنيت المغاربة /2011/01/25. 22- المقالة المذكورة سابقا والمعنونة بالرمز الشعري –ما هو

23- عز الرمز وما هي أشكاله / منتديات التيجانية اونلاين /2012/04/04.

24- سعدي يوسف الدين إسماعيل /الشعر العربي المعاصر..../ص202- 203 /الديوان ج1 (مجموعة الساعة الأخيرة) ص71.

25- محمد الكحلاوي /الرمز والرمزية في النص الصوفي /مجلة الحياة الثقافية /العدد75 /21 ماي 1996/ ص29.

26- المقالة المذكورة آنفا والمعنونة بالرمز في الشعر المغربي المعاصر.

27- ابن الفارض /الديوان /ص129.

28- د. سليمان العطار/ الخيال والشعر في تصوف الأندلس /ص65- 66.

29- الدسوقي / جوهرة الدسوقي / ص114.

30- ينظر بورا /النظرة التجريدية عند شيلي في الخيال الرومانسي /ص 125.

31- ياسين بن عبيد / الوهج العذري / ص31.

32- محمود درويش /حبيبتي تنهض من نومها /المجلد الأول /دار العودة –بيروت /الطبعة 14/ 1994/ ص430.

33- سعدي يوسف الديوان (مجموعة الليالي كلها) ص161.

34- ينظر مقالة الرمز الشعري /منتديات التجانية اونلاين /2012/04/04.

35- بدر شاكر السياب /الديوان / الجزء الأول /ص189.